ياعيل لوتان *

الصهيونية كاستمرار لليهودية بوسائل أخرى

يصطدم كل من يحاول البحث في ظاهرة الصهيونية على الفور بمشكلة تعريفها. وخلافاً للاستيطان الأوروبي في أميركا، على سبيل المثال، أو استعمار بريطانيا لكينيا أو الهند، فقد اتخذ الاستيطان اليهودي في فلسطين تعريفات مختلفة ومتناقضة. التعريفان الأكثر شيوعاً واللذان يناقض أحدهما الآخر هما:

أ- الصهيونية هي «حركة تحرر وطني للشعب اليهودي».

ب- الصهيونية هي «أحد مظاهر الكولونيالية الأوروبية في القرن العشرين». سأعود إلى هذين التعريفين وجذورهما ومحدداتهما.

من جهتي سأزعم أن الصهيونية هي ظاهرة يهودية في جوهرها ولا يجوز الفصل بينها وبين اليهودية (بالمعنى الديني التاريخي للمصطلح) ومن هنا فإن التشابه بينها (أي الصهيونية) وبين حركات التحرر الوطني من جهة، والحركات الكولونيالية من جهة أخرى هو تشابه شكلي أكثر منه جوهري، ويبقي ظواهر مختلفة في التاريخ الصهيوني دون تفسير.

ما هي اليهودية؟

«بالنسبة لمن يميز بين الطاهر والنجس.. أو المقدس وغير المقدس.. الخ، فإن اليهودية برمتها هي محل تمييز وتمايز وإنعزال. فما هو أساس هذه السمة أو الميزة البارزة، ومن أين تنبع؟

هذا الموضوع هو في حدّ ذاته موضوع كبير وشائك، من الجدير بحثه بطرق إنثروبولوجية، سيكولوجية، تاريخية وسوسيولوجية، هناك أسباب كثيرة تفسر عدم بحث أو دراسة اليهودية بهذه الطرق، ولماذا لم يقم الباحثون القلائل، الذين حاولوا بحث الطبيعة الحقيقية لليهودية، بهذه المهمة بروحية دفاعية.

* كاتبة وصحافية ومحررة أدبية

وصف بن غوريون لحظات نزوله من الباخرة في ميناء يافا وكيف إندهش عندما نظر حوله، حيث تساءل قائلا: «ما الذي يفعله هؤلاء العرب في بلادي؟! ألم يكن من المفروض بالصهيونية أن تجنب اليهود الحاجة إلى بناء أسوار من العزلة حول أنفسهم؟!».
هنا، وفي هذه النقطة يبدأ الصراع، وليس فقط الصراع بين اليهود والعرب.
في العقد الأول من القرن السابق أعرب قادة الصهيونية عن امتعاضهم واحتجاجهم إزاء وجود «إسماعيليين وإسماعيليات» يعملون في بيارات اليهود وبيوتهم..
وتساءلوا: ما جدوى الهجرة إلى أرض إسرائيل إذا كان اليهود يحتكون هنا أيضاً بـ«الأغيار» وإذا كانت الـ«شيكسيات» [فتيات غير يهوديات] يعملن في مطابخهم ويعتنين بأطفالهم؟!

أحد الأسباب التي يمكن الاشارة إليها في هذا الصدد تتمثل في حقيقة أن عدداً من مؤسسي الانثروبولوجيا المعاصرة هم من أصل يهودي (مثل فرانتس بوعز ولاحقاً كلود لفيشتراوس). غير أن باحثين آخرين لم يجرؤوا في صدد الديانة التي انبثقت عنها المسيحية على تطبيق أساليب البحث التي كانوا قد طبقوها دون تردد إزاء ثقافات وديانات غريبة أو أجنبية.

هناك مثال نادر ومفيد جداً ورد في كتاب ميري دوغلاس (Purity and Danger)، والذي تناقش فيه قواعد الـ«كاشيروت» في كتاب «التوراة» ضمن سياق إنثروبولوجي واسع. لكن ذلك لا يعدو كونه، كما أسلفنا، مثالاً واحداً يتناول فقط المراحل الأولى لليهودية، وهذا أشبه بشخص ما سعى إلى التعرف على طبيعة الولايات المتحدة بناء على معطيات تعود لمنتصف القرن الثامن عشر!

لقد حان الوقت لأن يبادر أحد ما إلى تطبيق طرق البحث الانثروبولوجية المتعارف عليها فيما يتعلق بكتاب الأحكام الدينية اليهودية، على سبيل المثال، من خلال مقارنة مع ثقافات أخرى. مع ذلك، وبمعزل عن هذه الوسائل، فإن باستطاعتي الإشارة إلى عدد من الخطوط الرئيسة.

١- عَرَّفَ كتاب التوراة أسماء إله بني اسرائيل سلفاً بمفاهيم مطلقة: فالله ليس إله أقوام أخرى، وهو لا يقبل أن يُشرك في سلطته على القوم الذين اختارهم لنفسه أي إله آخر، وبكونه إله الهواء والرياح وظاهر الأرض فهو لا يتعامل مع ما يوجد تحت سطح الأرض، بمعنى مع عالم الأموات والقوى الدونية (من هنا تأتي مقولات وأمثال من قبيل «الأموات لا يسبحون باسم الله...» وتحريم استحضار الأرواح والسحر والتنجيم) و«يهڤاه» (يهوى) (اسم الله كما ورد في التوراة) يطالب المؤمنين به بأن يميزوا أنفسهم عن المحيطين بهم بعلامات معينة كالختان وتحريم إشعال النار والعمل في يوم معين من أيام الأسبوع.

وقد حددت التوراة قواعد فصل بين أنواع مختلفة من المزروعات، وحظرت حراثة الأرض بواسطة الحمار والثور، وغير ذلك. وأضافت الديانة اليهودية على مر العصور والأجيال المزيد من المحرمات والمحظورات الطقوسية وباتت تقع برمتها تحت طائلة التمييز بين «الطاهر» و«النجس»، «المقدس» و«الدنيوي»، الـ «كاشير» والـ«طاريف» والـ «حاميص» والـ«ماتصا» وبين الرجال والنساء والقُصَّ والبالغين، والـ«بسري» والـ«حلبي»، والحرير والقطن... الخ[1].

٢- بدأت اليهودية المعاصرة بالتطور في فترة «الهيكل الثاني». وقد اتخذ التمييز الأساسي-أي التمييز بين «بني اسرائيل» و«الاغيار»-منذ تلك الفترة فصاعداً، شكلاً مُمأسساً وراسخاً، عندما حظر عزرا ونحميا الزواج مع «شعب البلاد» وميَّزا بشكل صارم بين اليهود وباقي بني البشر، وقد استبعد حتى «السمرة» الذين نعتوا بالـ «كوتيين». كذلك واجه اليهود الذين تبنوا بعضاً من أعراف وتقاليد العالم المحيط بهم، الشجب والإدانة من جانب اليهود المتعصبين. أما اليهودي الذي واصل السير في طريق الذوبان الثقافي والشخصي فقد صار غريبا وعدواً، وتحول إلى «آخر»، كحال إليشع بن أبويا. (يجدر التمييز بين ما بدا كتمايز في فترات موغلة في القدم، على سبيل المثال قضية زوجة موشيه السوداء والتي كانت في نطاق ظواهر التوجس من الغرباء الاعتيادية، وبين الفصل أو التمييز الذي تم في فترة متأخرة، والذي نصت عليه «الهلخا». ويستدل بوضوح من القصص التاريخية التي وردت في «التاناخ» أن صلات الزواج بين اليهود والأقوام والشعوب المحيطة لم تنقطع لغاية حقبة الهيكل الثاني).

٣- بعد خراب الهيكل الثاني، في القرن الأول للميلاد، أضحى

التميز السمة الأبرز لليهودية. كانت هناك، في تلك الفترة، شعوب أخرى ختنت أبناءها (الذكور) وعبدت إلها واحداً وأحياناً إلها غير مرئي (حسب تاكيتوس، هكذا كان أيضاً إله القبائل الألمانية) وحَرَّمت أكل لحم الخنزير، إلا أنه لم تنشأ بينها وبين اليهود أية شراكة روحية أو اجتماعية. ومع أن الدين الإسلامي تبنى في وقت لاحق المبادئ الأساسية لليهودية إلاّ أنه واجه الرفض من قبل الأخيرة. فالتميز والانعزال كان هدفاً في حدّ ذاته. وقد تحولت العبارة التوراتية «شعب يسكن وحده غير آبه بالأغيار» إلى مثل أعلى للقوم المشتت.

وكانت اليهودية تبنت المبدأ الروماني القاضي بأن نسب الإنسان يمر عبر الأم وليس الأب، لأن «الأم معروفة دائماً»، إلى جانب وجهة النظر القائلة بأن اليهود ليسوا فقط مجموعة لها عقيدة دينية تختلف عن عقيدة باقي الشعوب، وإنما هم أيضاً مجبولون من طينة أخرى مختلفة تماماً، طينة أكثر «طهارة» لا يجوز «تدنيسها» بزواج «مختلط»[٢]

وفي الواقع تحولت العقيدة الدينية وطقوسها إلى موضوع هامشي تقريباً، إذ أن «يسرائيل على الرغم من أنه أخطأ يبقى يسرائيل». أي أنه حتى إذا أكل لحم الخنزير وأشعل النار يوم السبت، فإنه يبقى، إبن الشعب المختار، والطريق مفتوح دائماً أمام عودته إلى أحضان قومه. في المقابل فإن الـ«غوي» [غير اليهودي]، حتى إذا قام بختان عضوه الذكري وتأدية جميع الفروض الدينية، يبقى «غوي»، وعلى اليهود بذل كل جهد في سبيل ردع «الغوييم–الأغيار» عن اعتناق الديانة اليهودية. بناء على ذلك لا يمكن القول أن اليهودية تطلب لنفسها مكانة الحقيقة الكونية (المطلقة)، مثل الديانتين المسيحية والإسلامية، وإلاّ لكانت سعت إلى تهويد جميع الناس. من هنا المفارقة الكبرى، المتمثلة في أن الإله الكوني الذي يؤمن به اليهود غير معني بباقي أبناء الجنس البشري، وأنه يقيم نظاماً منفصلاً مع هذا القوم بعينه (قوم اليهود).

٤– كلمة «يهودية» في حدّ ذاتها، والتي تشير إلى الديانة والطائفة على السواء، تعني بوضوح أنه لا يجوز الفصل بين العقيدة والمؤمنين بها. فمقولة «لم يحافظ بنو اسرائيل على السبت، وإنما السبت هو الذي حافظ على بني اسرائيلاً مقولة صحيحة تماماً فقد حافظت الديانة (اليهودية)، بكل ما تنطوي عليه من محرمات وأحكام طهارة، على الهوية المنفصلة والمتميزة لأتباعها، وكانت تلك هي وظيفتها. في المقابل فقد إحتوت (أي الديانة اليهودية) على فكرة الحياة الآخرة، والقائلة بأن العالم أجمع سيعترف في «الآخرة» بـ«يهوى» (إله بني اسرائيل) وبالقدس كبيته وباليهود ككهنته، «مملكة كهنة وغوي طاهر». لم يرد ذكر أن جميع الناس سوف يتحولون

يهود نيويورك مطلع القرن العشرين: الانعزال فكرة جوهرية

إلى يهود! هذا يعني أن الفصل هو ظاهرة كونية وأنها ستطبق في حياة الآخرة. وهي بذلك تختلف عن الطائفة البراهمية والتي تعتبر بصورة عامة الظاهرة الأقرب أو الأكثر شبهاً باليهودية ذلك لأنه وحسب العقيدة الهندوسية فإن الإنتماء إلى هذه الطائفة أو تلك يسري فقط على روح واحدة، وليس له مكانة كونية.

العصر الجديد والتنوير

خفت حدة الانغلاق اليهودي في سائر الأماكن التي حصلت فيها عملية تنور وعلمنة. ففي القارة الأوروبية التي عاش فيها اغلبية اليهود، لوحظ بوضوح أن هذه العملية أضعفت الدين وعززت ودفعت قدماً عملية ذوبان اليهود في المجتمعات الأوروبية. وبمقدار ما أصبحت البيئة الاجتماعية العامة أكثر علمانية وانفتاحاً مما كانت عليه في الماضي، وبمقدار ما ضعف تحديد هوية الناس أو انتمائهم بناء على ديانتهم، بمقدار ما أضحى الانغلاق اليهودي أقل احتمالاً وقبولاً. ولولا الأزمات التي اجتاحت أوروبا في تلك الفترة لكانت هذه العملية ربما أفضت إلى ذوبان جارف لا يبقي في نهاية المطاف سوى جيوب صغيرة من اليهود الأرثوذكس المتعصبين. غير أن القلاقل والتقلبات التي عصفت بأوروبا أواخر القرن التاسع عشر عرضت سائر الأقليات لمخاطر وجودية، وخصوصاً اليهود. (فالسامية، التي تعود إلى جذور دينية وبدايتها في فترة الحملات الصليبية، اتخذت صبغة علمانية في تلك الفترة. فهل كان التميز هو الذي أثار نزعة اللاسامية أم أن أحدهما أثار الآخر بشكل متبادل؟ من الصعب الإجابة على هذا السؤال، وربما أنه لم يعد بذي أهمية أيضاً. ومما لا شك فيه ان اللاسامية الأوروبية بمظاهرها وتجلياتها العنيفة كانت الدافع الرئيسي وراء النزوح اليهودي إلى أميركا وغيرها من بلدان الهجرة البعيدة).

لقد تصرفت الصهيونية من نواح عديدة، كحركة كولونيالية أوروبية، ذلك لأن التفكير السياسي لدى الزعامة الصهيونية المركزية انبثق عن وجهة نظر أوروبية معاصرة. إضافة الى ذلك، مال قادة الحركة الصهيونية، حتى عندما انتهجوا خطاباً متقدماً، إلى التماثل مع الكولونيالية الغربية (يجب ألا ننسى أنه حتى الناس المتنورين في الغرب كانوا في ذلك الوقت مقتنعين بتفوق الحضارة الأوروبية).

في مطلع القرن العشرين، وعندما أخذت ظاهرة الذوبان تمتد إلى وسط أوروبا بل وإلى شرقها أيضاً، كانت هناك ثلاثة خيارات للحفاظ على اليهودية ومنع الذوبان. الأول هو الخيار التقليدي القديم، أي المحافظة الصارمة والحرص الشديد على قواعد الدين، والذي يعني الحيلولة مادياً دون الذوبان، إذ لا يمكن الذوبان وسط أناس لا تستطيع أن تأكل وأن تشرب معهم، أو أن تمضي بمعيتهم أوقات الفراغ، ناهيك عن الزواج. الخيار الثاني كان المحافظة على اليهودية عن طريق «اتونومياثقافية»، وفقاً لنصيحة «البوند»، بمعنى من خلال رعاية وتنمية الثقافة اليهودية الخاصة، في لغة الإيديش والموسيقى والتقاليد اليهودية المختلفة. لقد كان بامكان مثل هذه الحركة الشعبية الاندماج بالتيار التقدمي، وتأييد أيديولوجيات راديكالية، بل واتخاذ مواقف مناوئة للدين، ذلك لأنه لو كانت توجد لليهودية ثقافة منفصلة لكان يمكن بواسطتها المحافظة على اليهود، حتى ولو كانت الأسوار التي تقيمها حولهم ليست عالية ومغلقة كأسوار الأرثوذكسية.

أخيراً فقد طرح أيضاً الخيار الإقليمي، أي الصهيونية.

العزلة والانفصال الإقليمية

الاقتراح الذي قدمته الصهيونية تمثل في مواصلة العزلة اليهودية بطريقة طبيعية جداً، عبر الإنعزال المادي–الجسدي عن باقي الجنس البشري. ففي دولة اليهود سيكون بالامكان الحفاظ على القوم المنفصل دون الحاجة لخوض صراع دائم ضد الذوبان. إضافة إلى ذلك فإنه يمكن بهذه الطريقة تحقيق «تطبيع للشعب اليهودي»، إذ أنه سيكون متميزاً ومستقلاً عن باقي الشعوب وفي الوقت ذاته شعباً بين أسرة الشعوب، يحتوي مثلها على طبقات مختلفة، عمالاً ورأسماليين، علمانيين ومتدينيين، جميعهم من اليهود. زد على ذلك فإن تجمع جماهير اليهود من شتى أنحاء العالم في بقعة واحدة سيجعل وضعهم أكثر تماسكاً وقوة إحساساً بالأمان من بقائهم مشتتين كمجموعات أقلية في مجتمعات أجنبية وأحيانا معادية. غير أن نجاح هذا المشروع اقتضى أن يتم تطبيقه في مكان ليس خالياً من «الأغيار» وحسب، بل وتوجد له أيضاً ارتباطات وأبعاد يهودية محددة، أي في «أرض اسرائيل». جميع المحاولات لربط الحل المادي ببقعة جغرافية أخرى لم تكن حلولاً يهودية، ولذلك ظلت هامشية من ناحية عددية وقيمية.

في الثلث الأول من القرن الماضي (التاسع عشر) لم يحظ هذا الحل بنجاح كبير. فالنهج الأرثوذكسي المتعصب كان لا يزال

هناك في الحقيقة اختلاف أساسي بين المعسكرين الصهيونيين الرئيسيين، غير أنه يمكن تصور أو تبيان هذا الاختلاف بالطريقة التالية: معسكر القوة معني في أن تبقى اسرائيل شوكة دامية في حلق الشرق الأوسط، وهو يفضل استمرار حالة العداء والحرب على الهدوء. أما المعسكر «الحمائمي» فيسعى إلى مداواة الجرح النازف وجعل إسرائيل أشبه بشتلة في المنطقة، شيء على نمط منظم دقات القلب أو مفصل ورك بلاستيكي، وباختصار جسم غريب ولكن مُعقّم.
وحيث أنه لا جدوى في اعطاء شهادات للتاريخ، فإن السؤال لا يتمثل في ما إذا كانت نزعة الانفصال والعزلة جيدة أم سيئة، بل ما هو معناها وإلى أين تؤدي؟

متجذراً وراسخاً بقوة، في حين كان الحل الثقافي، «العلماني»، الذي إقترحه حزب «البوند» وأمثاله، قد بدا في نظر التقدميين أكثر جاذبية. أما الباقون فكانوا من الناس الذين لم يخشوا من الذوبان، بل ورأوا في اليهودية–كما ورد على لسان أحد الأشقاء في رواية «حميشتام» لـ جابوتنسكي–ليس سفينة آيلة للغرق وحسب، بل مجرد سفينة مهلهلة وقديمة لا يسع الإنسان العاقل إلاّ أن يسارع إلى النزول منها.

يبدو لي أنه لا جدال حول الحقيقة القائلة بأنه لولا صعود النازية وما نتج عنها لما كانت الصهيونية تحولت في النصف الثاني من القرن العشرين إلى قصة نجاح مثلما تحولت.

منذ إقامة دولة إسرائيل ساد التعريفان اللذان أشرت لهما في مستهل هذا المقال، ليس في إسرائيل وحسب، بل وفي كل مكان يطرح فيه الموضوع على بساط البحث. فاليهود العلمانيون يصفون الصهيونية على أنها إحدى حركات التحرر الوطني التي قامت في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، ويعرفون أية جالية يهودية مهما وإينما كانت، بأنها جزء من «الشعب اليهودي» أو «الأمة اليهودية»، وسوف أعود للحديث عن الإشكالية المبدئية الكامنة في هذا التعريف. ويميل اليهود، وغير اليهود، الذين ينطلقون من خلفية ماركسية إلى تعريف الصهيونية بأنها ظاهرة كولونيالية. بيد أن هذا التعريف ليس مقنعاً أيضاً، وسوف نعود لمناقشته.

الصهيونية كـ«حركة تحرر وطني»

تعهدت الصهيونية كما هو معروف، بحل مشكلة التميز اليهودي بطريقة إقليمية. ولسوء حظها فقد تبين أن السكان الأصليين في فلسطين، والذين وصفتهم الزعامة الصهيونية بأنهم «نفر من الرحل الاسماعيليين» الذي يمكن تجاهل وجودهم أو طردهم من المكان، هم شعب.

وصف بن غوريون لحظات نزوله من الباخرة في ميناء يافا وكيف إندهش عندما نظر حوله، حيث تساءل قائلا: «ما الذي يفعله هؤلاء العرب في بلادي؟! ألم يكن من المفروض بالصهيونية أن تجنب اليهود الحاجة إلى بناء أسوار من العزلة حول أنفسهم؟!».

هنا، وفي هذه النقطة يبدأ الصراع، وليس فقط الصراع بين اليهود والعرب.

في العقد الأول من القرن السابق أعرب قادة الصهيونية عن امتعاضهم واحتجاجهم إزاء وجود «إسماعيليين وإسماعيليات» يعملون في بيارات اليهود وبيوتهم..

وتساءلوا: ما جدوى الهجرة إلى أرض إسرائيل إذا كان اليهود يحتكون هنا أيضاً بـ«الأغيار» وإذا كانت الـ«شيكسيات» [فتيات غير يهوديات] يعملن في مطابخهم ويعتنين بأطفالهم؟! من هنا كان الحل أو الاقتراح بجلب يهود اليمن إلى البلاد لتشغيلهم مكان العرب في حقول وبيوت اليهود القادمين من أوروبا، وهذا ما تم بالفعل، حيث أقيم حي «شعاريم» قرب رحوبوت خصيصاً لإستيعاب وتوطين العائلات اليهودية من أصل يمني والتي حصلت كل عائلة منها على قطعة أرض مساحتها أربعة دونمات في الوقت الذي أعطيت فيه لكل عائلة إشكنازية قطعة أرض مساحتها ١٦ دونماً. هذا الترتيب ضمن ألا يتمكن اليهود من أصل يمني من إعالة أنفسهم من فلاحة أراضيهم فقط وأن يضطروا بالتالي للعمل لدى اليهود الإشكناز.

بيد أن تعريف اليهود كشعب ينطوي على إشكالية عويصة للغاية. فكل من أتى أو نظر للصورة من الخارج لاحظ فوراً أنه، باستثناء الدين، ليس هناك أي شيء مشترك بين اليهود الأوروبيين

«البعض يختار القوة، لكن الجميع يفضلها دولة بلا عرب»

واليهود اليمنيين، بين اليهودي من «كوتشين» واليهودي من رومانيا. (بعد مرور جيل أو إثنين تكون في إسرائيل بطبيعة الحال نوع من الشعب الاسرائيلي، مثلما تكونت شعوب جديدة في الولايات المتحدة واستراليا. وبالطبع فإن إغراق الشعب بموجات هجرة جديدة متتالية يعيق تبلوره، وهذه الحقيقة لها انعكاساتها الخاصة، لكن هذا المقال ليس بالإطار المناسب لمناقشتها).

وبالفعل ففي اسرائيل، ورغم مرور عشرات السنوات من التاريخ المحلي، فإن الدين هو الذي يوفر الإطار المشترك وهذا ليس ناتجاً فقط عن اعتبارات حزبية أو ما شابه ذلك. فإسرائيل لا تستطيع الكف عن كونها «دولة يهودية» أو «دولة اليهود». في مقال افتتاحي نشرته صحيفة «هآرتس» العلمانية بتاريخ ١٢ شباط ١٩٩٦ وردت أقوال صريحة في هذا الصدد جاء فيها «لقد قامت هذه الدولة لتمنح الشعب اليهودي وطناً قومياً، وهي ما انفكت تسعى إلى ذلك على أعتاب القرن الحادي والعشرين. إن الشعب اليهودي هو كيان إثني–قومي فريد من نوعه، يجمع بين الدين والقومية.. قواعد اللعبة السياسية المتبعة في إسرائيل تنبثق عن البديهية أو المسلمة القائلة بأن إسرائيل هي دولة يهودية... هذا الموقف نص عليه قرار المحكمة الاسرائيلية العليا وقوانين الكنيست والتي أكدت على أنه «لن يسمح لقائمة مرشحين بالمشاركة في الانتخابات للكنيست إذا كانت أهدافها أو أعمالها وممارساتها تنطوي صراحة أو ضمناً على رفض وجود دولة إسرائيل كدولة للشعب اليهودي».

صيغة «الشعب اليهودي هو كيان إثني–قومي فريد من نوعه، يجمع بين الدين والقومية»، تستند إلى فرضيات لا يمكن إثباتها بطريقة منطقية. فأي «كيان إثني» باستطاعته أو يمكن له ان يحتوي يهوداً روساً وعراقيين في آن واحد؟! هل باستطاعة اصطلاح «القومية» أن يفعل ذلك؟! كلا بالتأكيد. فالقاسم المشترك الوحيد هو الدين، إضافة إلى تقاليد أو أسطورة الأصل المشترك الذي يعود إلى ما قبل آلاف السنوات. وفي ظل ضعف وانحسار عامل الدين نجد أن الصهيونية تؤكد على أسطورة الاحتلال الإثني بطرق شتى مثل علم الآثار وأخذ الجنود لأداء قسم الولاء في قلعة «متسادا» أو قرب حائط المبكى...الخ.

الصهيونية كـ«حركة كولونيالية أوروبية»

ينظر ذوو الخلفية الماركسية إلى الصهيونية بمفاهيم يعتبرونها عالمية، أي المفاهيم المادية والطبقية والاقتصادية. وفي الواقع فإن التاريخ الصهيوني يشبه من نواحٍ كثيرة تاريخ الكولونيالية الأوروبية، والشاهد على ذلك أن القيادة الصهيونية هي من أصول أوروبية برجوازية، كما أن صلاتها وعلاقاتها بالحكومات الأوروبية البرجوازية كانت وطيدة منذ بداية طريقها. علاوة على ذلك، حصلت القيادة الصهيونية على تأييد حاسم من جانب عناصر رأسمالية

معروفة كالبارون روتشيلد وغيره. وابتداء من «وعد بلفور» الإمبريالي ولغاية دعم وتأييد الغرب لاسرائيل في الحروب التي شنتها خلال العقود الأخيرة، فإنه ليس من الصعب العثور على مقاربات وأوجه شبه بين الصهيونية وبين الاستيطان الاستعماري الفرنسي في الجزائر، على سبيل المثال.

ومع كل ذلك، فهذه (المقصود الصهيونية..) كائن من نوع مختلف!

أحد الشعارات الصهيونية التي تعرضت لإدانة شديدة من جانب الجناح التقدمي، هو الشعار الذي نادى بـ «العمل العبري»! ولكن ما هي دلالة هذا الشعار، عدا التنكر لاحتياجات قوة العمل العربية؟ واضح أنه لا يدل على عنصرية بالمعنى المتعارف عليه للكلمة، إذ اننا رأينا أن العمال (اليهود) اليمنيين، وهم ليسوا أوروبيين وليسوا مختلفين من ناحية «عرقية» أو ثقافية عن جيرانهم المسلمين في اليمن، قد فُضلوا على عمال عرب من السكان المحليين. (عموماً فإن نقاء يهودية الجالية اليهودية اليمنية لم يكن في أي وقت موضع شك. ويشار الى أن الحاخامات ومرتلي التوراة من أصل يمني حظوا بتقدير كبير نظراً لإلمامهم الواسع باللغة العبرية والمراجع الدينية اليهودية).

والحال، فإذا كان ذلك ليس عنصرية، فما هو معنى شعار «العمل العبري» إذاً؟ معناه ببساطة التميز والانعزال اليهودي عن «الأغيار» وتفضيل اليهود.

إنه يعني عملياً تجسيد نفس المبادئ التي اتبعها اليهود في حياتهم ومعيشتهم في أنحاء العالم على مر العصور والأجيال. في المقابل شكل توفر قوة العمل الرخيصة في المستعمرات الأوروبية في أميركا وافريقيا وآسيا، واحداً من اغراءات المشروع الكولونيالي، فقد هاجر الناس من أوروبا إلى أماكن مختلفة في أرجاء المعمورة سعياً وراء تحسين وضعهم الاقتصادي عن طريق استغلال الموارد الطبيعية في تلك الأماكن بمساعدة قوة عمل محلية رخيصة. فهل كان الاستيطان اليهودي في فلسطين، ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر وحتى أواسط القرن العشرين، مشروعاً مماثلاً؟! يجب أن لا ننسى أنه ولغاية اندلاع الحرب العالمية الثانية فإن غالبية الصهيونيين الذين قدموا الى البلاد بارادتهم الحرة، بدوافع أيديولوجية، تخلوا عن ظروف أفضل من الظروف التي وجدوها هنا. فهم لو كانوا يسعون لتحسين وضعهم الاقتصادي لكانوا قد هاجروا، مثلما فعل غالبية اليهود الذين هاجروا ابان تلك السنوات، الى القارة الأميركية واستراليا أو الى جنوب افريقيا. أما الأموال الطائلة التي استثمرها رأسماليون يهود في فلسطين، فقد شكلت هذه عملاً خيرياً يهودياً صرفاً، مسنوداً بتأييد أيديولوجي للمشروع الصهيوني. فهؤلاء الرأسماليون استثمروا أموالهم عندما سعوا وراء الربح، في قنوات ومجالات مضمونة أكثر من الاستثمار في الاستيطان اليهودي في فلسطين (هذا لا يعني بأنهم لم يأملوا في أن يقوم هنا بمرور الوقت مجتمع يهودي يتمتع باقتصاد اكتفاء ذاتي، بل ولربما اقتصاداً ربحياً).

لقد تصرفت الصهيونية من نواحٍ عديدة، كحركة كولونيالية أوروبية، ذلك لأن التفكير السياسي لدى الزعامة الصهيونية المركزية انبثق عن وجهة نظر أوروبية معاصرة. إضافة الى ذلك، مال قادة الحركة الصهيونية، حتى عندما انتهجوا خطاباً متقدماً، إلى التماثل مع الكولونيالية الغربية (يجب ألا ننسى أنه حتى الناس المتنورين في الغرب كانوا في ذلك الوقت مقتنعين بتفوق الحضارة الأوروبية). على أية حال، فقد كانت الكولونيالية، من وجهة نظر القادة الصهيونيين، هي السيناريو الواقعي الوحيد، في حين بدا لهم كل تصور آخر تصوراً عديم الجدوى في الظروف القائمة. لذلك، ركبت الصهيونية موجة الكولونيالية، وقدمت لها العون والمساعدة كي تستعين بها في المقابل. فعندما كانت الامبراطورية البريطانية هي القوة الصاعدة في الشرق الأوسط، قامت الصهيونية بالتعاون معها. واليوم، حيث أضحت الولايات المتحدة الأميركية القوة المهيمنة الوحيدة، نجد أن اسرائيل تخدمها لأنها تخدم اسرائيل في المقابل. غير أن هدف الصهيونية ليس خدمة سياسة الولايات المتحدة، وانما خدمة الهدف اليهودي القديم المتمثل بتحقيق الوجود أو الكيان اليهودي المستقل.

الصهيونية الإسرائيلية

من الطبيعي أن تجيز الصهيونية وجود تيارات مختلفة ضمن اطارها، طالما أن جميع الجداول تصب في البحر نفسه، أي في دولة يهودية تكون فيها العزلة أتوماتيكية. (فبوسع صهيونيين علمانيين أيضاً أن يتحدثوا عن الذوبان في دول الغرب باعتباره

يهود في بولندا مطلع القرن الماضي: خوف دائم من « الذوبان »

«كارثة ديمغرافية»). هناك اعتقاد رائج حالياً مفاده أن اليهود الوحيدين في العالم ـ ما عدا ذلك النفر الأرثوذكسي الذي يواصل الحفاظ على هويته بالطريقة القديمة ـ سيكونون بعد ثلاثة أو أربعة أجيال هم فقط مواطنو الدولة اليهودية، وأن الباقين سوف يذوبون ويختفون بين «الأغيار». بناءً على ذلك، كانت الصهيونية ولا تزال هي البرنامج المشترك لجميع التيارات، ابتداءً من الحاخام مئير كاهانا وحتى يشعياهو ليبوبيتش، ومن رفائيل ايتان حتى شولاميت ألوني، من دادي تسوكر حتى بني ألون. فالشيء المهم أو الجوهري هو أن علينا أن نكون متميزين، منعزلين، والسؤال هو فقط: كيف يمكن تحقيق هذا الهدف؟

يعتقد المؤمنون بمنطق القوة أن بالإمكان قمع وربما طرد السكان غير اليهود الذين يعيشون في هذه البلاد، أو على الأقل محاصرتهم داخل نوع من الكانتونات أو المعازل المغلقة، أما أصحاب النوايا الحسنة فإنهم يفضلون دولة صغيرة جداً «على ضفتي اليركون» بشرط أن تكون هذه الدولة «كلها لنا»، أي من دون عرب، أو مع بقاء نفر قليل من العرب كنوع من الزخرفة التي تدل على نقاء الديمقراطية الاسرائيلية. وهم بذلك (أي «أصحاب النوايا الحسنة») يشبهون الحزب اليميني الأبيض بزعامة يوغين تير ـ بلانش في جنوب افريقيا، والذي يطالب منذ سقوط نظام الفصل العنصري (الأبارتهايد) ببقعة جغرافية منفصلة للبيض في مقاطعة «ناتال».

إن إدراك كون الصهيونية هي استمرار لليهودية بوسائل أخرى يبين بوضوح كيف تمكنت (الصهيونية) من التأقلم والانسجام مع النموذج الكولونيالي، وفي الخروج عنه في الوقت ذاته، في عدد من النواحي والمفاهيم المهمة، وفي أن تكون مشابهة لحركات التحرر الوطني، وان تختلف عنها من حيث ماهيتها.

وقد جاءت الكارثة (المحرقة النازية) لتنعش اتجاه الانفصال والعزلة ولتمده بمبرر عصابي جديد. وبطبيعة الحال فإنه لا جدوى اليوم في خوض جدل حول حجم الدور الذي لعبته العزلة ذاتها في اثارة وتصعيد اللاسامية، وحتى لو كان ذلك صحيحاً فإنه لا يجوز القاء اللوم على الضحية.

لا يمكن اليوم استيعاب مفارقات الوضع في اسرائيل، إلا إذا فهمنا غاية الصهيونية وجوهرها. لا يمكن فهم لماذا تحدث في جنوب افريقيا عملية معاكسة للانفصال («الابارتهايد»)، باتجاه الوحدة، رغم كل الصعوبات التي تواجهها هذه العملية، في حين نجد لدينا أنه حتى الشعار الداعي إلى «دولتين لشعبين»، والذي تبدو نواياه متنورة ظاهرياً، إنما يسعى في الواقع الى الهدف ذاته الذي تتبناه الاتجاهات الارثوذكسية المتعصبة.

هناك في الحقيقة اختلاف أساسي بين المعسكرين الصهيونيين الرئيسيين، غير أنه يمكن تصور أو تبيان هذا الاختلاف بالطريقة التالية: معسكر القوة معني في أن تبقى اسرائيل شوكة دامية في حلق الشرق الأوسط، وهو يفضل استمرار حالة العداء والحرب على الهدوء. أما المعسكر «الحمائمي» فيسعى إلى مداواة الجرح النازف وجعل إسرائيل أشبه بشتلة في المنطقة، شيء على نمط منظم دقات القلب أو مفصل ورك بلاستيكي، وباختصار جسم غريب ولكن مُعقّم.

وحيث أنه لا جدوى في اعطاء شهادات للتاريخ، فإن السؤال لا يتمثل في ما إذا كانت نزعة الانفصال والعزلة جيدة أم سيئة، بل ما هو معناها وإلى أين تؤدي؟

لعلنا نسمع الكثير عن دولة القومية، وهناك من يصف عصرنا بأنه «عصر الدولة القومية». والحقيقة أننا نعيش في عصر دول غير قومية. فالدولة الأعظم في عالمنا، الولايات المتحدة الأميركية، ليست دولة قومية، وهذا ما ينسحب على جميع بلدان القارة الأميركية من أقصاها الى أقصاها. كذلك فإن استراليا وبريطانيا العظمى والهند والصين وروسيا واندونيسيا، ليست دولاً قومية، وكذلك الحال بالنسبة لمعظم دول افريقيا. ونحن نلاحظ أن عدد البلدان التي ينتمي سكانها الى مجموعة عرقية ـ ثقافية واحدة يتناقص أكثر فأكثر مع مرور الوقت. فقد أدت موجات الهجرة الجماعية خلال المائة عام الأخيرة الى تقويض المبنى أو القالب القومي الذي لم يكن في الواقع جامداً إلى الحد الذي ساد الاعتقاد حوله.

إن من يعتقد أنه سيكون بالإمكان في المستقبل المحافظة هنا على «دولة يهودية» إنما يعيش في الأوهام، فليس الشعب العربي الفلسطيني وحده وحسب، بل الواقع الإنساني برمته، سوف يحولان دون تحقيق هذا الهدف.

والسؤال المطروح فقط هو: ما هو الثمن الذي سيدفعه سكان هذه البلاد إلى حين العثور على حل.

مصطلحات أساسية

* «نحن» : مجموعة الانتماء ـ قومية، شعب، قبيلة، طبقة، حاملة، وما شابه.

ما هي مجموعة الانتماء، ومن هم «نحن» في المعجم الإسرائيلي؟ ما هو القاسم المشترك بين يهود اليمن والعراق وشمال افريقيا وأوروبا والولايات المتحدة وروسيا..الخ؟ القاسم المشترك في نهاية المطاف هو الانتماء الديني، والدليل: ليس هناك من يطعن أو يشك في يهودية أي شخص تعترف به الحاخامية الأرثوذكسية المتزمتة كيهودي، في حين أن أي تعريف آخر يخضع للشك والتأويل.

* الصهيونية: الفرضية بأن هذه البقعة الجغرافية المعينة، المقرر أن تكون «دولة اليهود»، مخصصة لمجموعة الانتماء المذكورة أعلاه. هذه الفكرة لا مثيل لها. فحتى في جنوب افريقيا إبان عهد نظام الفصل العنصري (الأبارتهايد)، كان التخصيص أوسع وأكثر شمولية بكثير، فقد كان بوسع أي شخص أبيض الانضمام لمجموعة الانتماء المهيمنة. (على سبيل المثال، المهاجر البولندي الذي قتل الزعيم الافريقي كريس هافي).

هنا يدور الحديث عن مجموعة مقلصة أكثر يستند تعريفها إلى الدين الذي ينتقل كما هو معروف بالوراثة.

* اللغة العبرية: لغة اليهود طالما كانوا يهوداً. فاليهود الإشكناز تكلموا بلغة الإيديش، والاسبان «لدينو»، وفي البلدان العربية كانت هناك لهجات يهودية ـ عربية محلية. أما العبرية فكانت لغة اليهود كيهود، استخدموها في كل العصور ولا سيما لأغراض دينية، بما في ذلك في الأدبيات والشروحات الدينية على نطاق واسع. ففي العصور الوسطى وعصر النهضة كتبت باللغة العبرية العديد من الروايات والقصص الأدبية، كذلك كتبت بالعبرية ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر روايات معاصرة. وعندما بدأ اليهود بالتوافد على فلسطين من أماكن وجاليات مختلفة، أصبحت اللغة العبرية الخيار الطبيعي كلغة مشتركة، حيث تعلم جميع اليهود الذكور العبرية في نطاق التعليم الديني. وكان هناك من شكك في إمكانية استخدام اللغة العبرية أيضاً في تدريس العلوم وما شابه ذلك (ومن هنا نشأ الخلاف حول لغة التعليم في معهد التخنيون)، بيد أن تأسيس الجامعة العبرية في القدس العام ١٩٢٥ جاء بناءً على فرضية أن هذا الأمر ممكن.

* الصهيونية = قانون العودة. هذا ما تعنيه الصهيونية، وليس هناك من معنى آخر للاصطلاح، وكل من يحاول طرح الصهيونية كـ «وطنية اسرائيلية» إنما يقع في مغالطة. فمواطنو اسرائيل

العرب لا يمكن لهم أن يكونوا، ولن يكونوا أبداً صهيونيين. كذلك فإن من يدعي بأنه يمكن الوصول الى وضع من «ما بعد الصهيونية» في ظل بقاء قانون العودة، يقع بالمثل في خطأ فادح.

ادعاءات مضادة واجابات:

١ ـ «نحن علمانيون، وكذلك كان مؤسسو الدولة.. فما شأننا بالمصطلحات الدينية لليهودية مثل [مملكة كهنة وغوي طاهر]؟ من منا يؤمن بذلك أو يتأثر به؟!

جواب: ليس السؤال بأية درجة نؤمن نحن بصفة شخصية بالمصطلحات الأساسية لليهودية، وإنما بأية درجة تشكل هذه المصطلحات جزءاً من وجهة النظر التي تستند إليها الصهيونية والمجتمع الذي أقامته؟ في أوروبا الغربية غالبية السكان لا يؤمنون بإله الغيب ولا يرتادون الكنيسة ولكن مما لا شك فيه أن العقيدة التوحيدية عامة والمسيحية بشكل خاص يقفان في أساس المجتمع الغربي وقيمه والقوانين السائدة فيه.

٢ ـ «غالبية الجمهور في البلاد لا تقبل التعريف الأرثوذكسي لـ «من هو اليهودي». على سبيل المثال فإن قسماً كبيراً من المهاجرين الروس لا يبدون مثل اليهود وقد أعربت الحاخامية الرئيسة عن شكوكها ازاء يهوديتهم».

جواب: السياسة التي توجه الزعامة الصهيونية كانت دائماً وأبداً الإكثار من «الهجرة» وتكثيفها بغية خلق ثقل ديمغرافي في مواجهة العالم العربي، ولعل تدقيق الحاخامية يعيق أحياناً هذه العملية. في الفترة الأخيرة اقتصرت المشكلة على نفر قليل من المهاجرين (يذكر أن الحاخامية طرحت تساؤلات فيما يتعلق بيهودية «بني يسرائيل» مثلاً). ولكن في أعقاب الضجة التي أثارتها المؤسسة الصهيونية حول «يهود الاتحاد السوفييتي» وصلت موجة ضخمة من المهاجرين من الصعب التحقق من يهوديتهم. ومع ذلك فإن وزيراً علمانياً صرفاً كـ يئير تسبان وجد أن من الضروري استشارة الحاخامات فيما يتصل بيهودية مهاجرين مختلفين.

٣ ـ «نحن لم نخترع العنصرية. فهناك شعوب أخرى تتعامل مع الغرباء ـ الأجانب ـ بالطريقة نفسها. فلماذا يفترض فينا أن نكون أكثر انفتاحاً من الآخرين؟!».

جواب: هذه حجة مقبولة، فرهبة الغرباء هي ظاهرة إنسانية عامة، وهناك أشكال مختلفة من التعصب القومي والعنصرية، قائمة في أماكن كثيرة من العالم. كذلك فإن «العنصرية» اليهودية لا تستند إلى مفاهيم عرقية روتينية، كما لاحظنا، فالصهيونيون الأوروبيون لم يشككوا في انتماء يهود اليمن أو العراق، رغم أن هؤلاء يختلفون عنهم في المظهر ويشبهون المسلمين اليمنيين والعراقيين. بيد أن ذلك، يشكل دليلاً آخر على أن مجموعة الانتماء الاسرائيلية الصهيونية تستند إلى قاسم مشترك ديني موغل في القدم، يميز طائفة دينية عالمية، وليس الى «عرق» أو «قومية».

٤ ـ «يشهد العالم الغربي قاطبة عملية ذوبان حثيثة ومصاهرة أو زواج مختلط مع غير اليهود، فلماذا إذاً لا نحافظ هنا، في البلاد، على التراث اليهودي رغم قدمه؟».

جواب: حسناً، ولكن يجب أن يتم ذلك بإدراك واضح لما يعنيه الأمر. فهذا يعني: نظام أبارتهايد أكثر تشدداً وصَلَفاً وتعسفاً مما كان عليه الحال في جنوب افريقيا في عهد النظام العنصري الأبيض. يعني: مواصلة جلب مهاجرين من أنحاء العالم لا قاسم مشتركاً يجمعهم سوى التقاليد الدينية، وسط اقصاء وطرد أبناء هذه البلاد الأصليين. يعني: أن يواصل أميركيون وروس يلبسون قلنسوات الاستيطان في البلاد وسط طرد ابنائها القدماء منها حتى بطرق وأساليب باروخ غولدشتاين (مرتكب المذبحة ضد المصلين العرب في الحرم الابراهيمي بالخليل العام ١٩٩٤) إذا كانت هذه «قومية» فهذا يعني أن لدينا مشكلة تعريف خطيرة.

الهوامش

١ـ قبل عدة سنوات رفضت وزارة المعارف منح رعايتها لكتاب أطفال من تأليف إفرايم سيدون، لأنه (الكتاب) ينتهي بتزاوج ببغاء ذكر مع أنثى القبّرّة «ليس من جنسه».. وقد اضطر المؤلف في نهاية المطاف إلى تغيير نهاية القصة وبذلك أقر الكتاب.

٢ـ يستمر التمييز في مرحلة ما بعد الموت أيضاً. وهذا ما يعُزى إليه كون الجثث أو رفات «الأغيار» لا تشكل مصدر دناسة وكذلك الحال بالنسبة لبقايا الحيوانات.

في المقابل، فإن جثث أو رفات اليهود تشكل مصدر تدنيس وبالتالي لا يجوز للكهنة الاقتراب منها أو ملامستها.

هنا يبرز بشكل كبير عنصر الشعوذة الذي يحرص على اعطاء القوى الغيبية ما لها.